سلاح المفسر

بقلم
الدكتور المحمدي عبد الرحمن
مدرس التفسير وعلوم القرآن

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، والصلاة والسلام على محمد عبدالله ورسوله الذى شرفه ربه بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

لقد لاحظت فى الفترة الأخيرة أن بعض المثقفين يتهجمون على كتاب الله ، ويقولون فيه من غير أن يتسلحوا بالعلوم التى تؤهلهم للوقوف على معانيه ، فبذلك ضلوا وأضلوا ؛ وهذا مما دعانى إلى أن أكتب فى هذا الموضوع حتى يرعوى كل من تسول له نفسه أن يتجرأ على كتاب الله فيقول فيه بغير علم .

وهذا البحث تناولت فيه معنى التفسير ، والفرق بينه وبين التأويل ، وهذا هو المبحث الأول . أما المبحث الثانى فتعرضت فيه لتاريخ التفسير باختصار ، والمبحث الثالث ذكرت فيه العلوم التى يحتاج إليها المفسر ، وكيف كانت تلك العلوم السلاح الذى لا يستطيع أن يستغنى عنه مفسر لكتاب الله .

ولقد سبقنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع كثيرون إلا أننى انفردت عنهم بتوضيح ماهية تلك العلوم وكيف خدمت المفسر حتى يخرج تفسيره صحيحاً بضرب أمثلة توضح ذلك المفهوم مما يتبين بعد ذلك بأنه لولا معرفة المفسر لهذه العلوم لوقع فى ورطات كثيرة وخرج إلى الناس بمفاهيم فاسدة ؛ القرآن منها برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

ولقد بذلت قصارى جهدى فى أن أوفى الموضوع حقه ولا أدعى بذلك أننى بلغت الكمال فيه فالكمال لله وحده وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

د. المحمدى عبد الرحمن

المبحث الأول

بين التفسير والتأويل

التفسير فى اللغة : البيان ، والتفسير منه ، والمفسر كشف المغطى ، وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه ، فهو تفسرته واستفسرته كذا سألته أن يفسره لى ، وتفسير القرآن الكريم هو بيان كلام الله عز وجل بذكر مفهومات الكلمات والعبارات الموجودة فى القرآن .

الفرق بين التفسير والتأويل :

قيل : التفسير والتأويل واحد بحسب عرف الاستعمال . والصحيح تغايرهما ، واختلفوا فقيل : التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ورد أحد الاحتمالين إلى ما يطابق الظاهر .

قال الراغب : التفسير أعم من التأويل وأكثر استعماله فى الألفاظ ، والتأويل أكثر استعماله فى المعانى كتأويل الرؤيا ، وأكثر ما يستعمل فى الكتب الإلهية ، والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها ، والتفسير أكثر ما يستعمل فى معانى مفردات الألفاظ .

المبحث الثانى

تاريخ التفسير

١ — بدأ التفسير بتوضيح النبى ﷺ لبعض الآيات ، وبذلك يعتبر النبى الأمى الأمين أول مفسر للقرآن الكريم .

٢ — اتسع نطاق التفسير كلما بعد العهد بالنبوة لحاجة الناس إلى التفسير وبعدهم عن ملابسات نزول القرآن .

٣ — لم يكن التفسير لذات التفسير ، بل نشأ التفسير إجابة عما غمض وتوضيحاً لما أشكل ، وتفسيراً لما أبهم ؛ فلم يفسر النبى الأمى الأمين جميع القرآن بل فسر آيات منه ، وتعهد أصحابه القرآن قراءا ، وفهماً ، وتوضيحاً فاتسع نطاق التفسير نسبياً ، ولكنه لم يشمل جميع القرآن ، ويؤيد هـــذا قول الإمام الشافعى : (لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث)[1] .

٤ — ابتدأ فى عصر التابعين تدوين التفسير والتصنيف فيه ، وأول كتاب ظهر فى التفسير كان لسعيد بن جبير بن هشام الكوفى الأسدى بالولاء ، المتوفى سنة ٩٥هـ[2] .

٥ — وفى عصر تابعى التابعين اتجهت الهمم إلى جمع ما أثر عن التفسير عن رسول الله ﷺ وعن صحابته وعن التابعين فدونوا علم التفسير فى الكتب الصغار والكبار ، وصارت كتبهم أجمع للعلم من الكتب السابقة . واشتهر من بينهم :

مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ .

---

(١) انظر الاتقان فى علوم القرآن جـ ٤ ٢٢٩ .

(٢) ابن جرير الطبرى : تفسير ١/٣ .

وعبد الرازق بن همام الصنعانى شيخ الإمام البخارى فى الحديث ، والمتوفى سنة ٢١١هـ ، وتفسيره مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية وتوجد نسخة منه بمكتبة استانبول بتركيا . هذا بالإضافة إلى كثيرين غيرهم وما ذكرته هذا على سبيل المثال لا الحصر .

٦ — كثير من التفاسير المبكرة التى دونت فى عصر التابعين وتابعى التابعين ضاعت ولم تصل إلينا . ويعتبر تفسير ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، أقدم وثيقة تجمع هذه التفاسير .

٧ — استمرت عناية المسلمين بالقرآن فى جميع العصور الإسلامية فألف حوله من الكتب ما لا يحصى .

وصدق الله العظيم إذ يقـــول : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1] .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩ .

المبحث الثالث

علوم يحتاج إليها المفسر

وهذا هو الدافع الحقيقى وراء البحث كله .

اشترط العلماء فى المفسر الحقيقى الذى يريد أن يفسر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط أن يكون ملماً بجملة من العلوم التى يستطيع بواسطتها أن يفسر القرآن تفسيراً عقلياً مقبولا ، وجعلوا هذه العلوم بمثابة سلاح تعصم المفسر من الوقوع فى الخطأ ، وتحميه من القول على الله بدون علم . وهذه العلوم هى :

علم اللغة :

وهذا العلم يحتاج إليه المفسر لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع . قال مجاهد : لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب . ثم إنه لا بد للمفسر من التوسع والتبحر فى ذلك ؛ لأن اليسير لا يكفى ، إذ ربما كان اللفظ مشتركا ، والمفسر يعلم أحد المعنيين ويخفى عليه الآخر ، وقد يكون هو المراد[1] .

فمثلا : لفظ سقط تستخدم فى معان مختلفة ، فوجه منها : السقوط : الندامة . قوله تعالى فى سورة الأعراف : (ولما سقط فى أيديهم) . يعنى لما ندموا على عبادة العجل .

الاستعمال الثانى للفظ : سقط - أى وقع فى الشرك - قوله تعالى فى سورة براءة : (ألا فى الفتنة سقطوا) أى فى النفاق والشرك وقعوا .

---

(١) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم للفقيه الدمغانى ص ٢٤٠ .

الاستعمال الثالث : يساقط : أى يتناثر . قوله تعالى فى سورة مريم : (تساقط عليك رطباً جنياً) . يعنى تتناثر عليك رطباً .

الاستعمال الرابع : السقوط : الوقوع بعينه ، قوله سبحانه فى سورة الإسراء إخباراً عن غيرهم : (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً)[1] .

وهناك ألفاظ يظن بها المترادف ، وهى ليست منه فإذا لم يعرفها المفسر وقع فى خطأ كبير ومن ذلك : (جاء ، أتى) فاللفظ الأول : (جاء) يقال فى الجواهر والأعيان قال تعالى : (وجاءوا على قميصه بدم كذب)[2] . (وجىء يومئذ بجهنم)[3] .

وأما قوله تعالى : (وجاء ربك)[4] أى أمره ، فإن المراد به أهوال القيامة والمشاهدة .

وكذا قوله تعالى : (فإذا جاء أجلهم)[5] . لأن الأجل كالمشاهد ولهذا عبر عنه بالحضور فى قوله تعالى : (حضر أحدكم الموت)[6] . ولهذا فرق فرق بينها فى قوله تعالى : (جئناك بما كانو فيه يمترون ، وآتيناك بالحق)[7] لأن الأول العذاب وهو مشاهد مرئى بخلاف الحق .

أما لفظ : (أتى) يقال فى المعانى والأزمان . قال تعالى : (أتى أمر الله)[8] .

---

(١) بعض آية ٩٢ من سورة الإسراء .
(٢) سورة يوسف آية : ١٨ .
(٣) سورة الفجر آية : ٢٣ .
(٤) سورة الفجر آية : ٢٢ .
(٥) سورة الأعراف آية : ٣٤ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٨٠ .
(٧) سورة الحجر آية : ٦٣ ، ٦٤ .
(٨) سورة النحل آية ١ — الإتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٣٦٥ .

وهذا العلم من أسلحة المفسر ؛ لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب ، وعلى الناظر فى كتاب الله الكاشف عن أسراره النظر فى الكلمة وصيغتها ومحلها كونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلا أو مفعولا أو فى مبادىء الكلام ، أو فى جواب ، إلى غير ذلك يجب عليه مراعاة أمور :

أحدها : وهو أول واجب عليه أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفرداً أو مركباً قبل الإعراب فإنه فرع المعنى ؛ ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور إذا قلنا : بأنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

قال ابن هشام : وقد زلت أقدام كثير من المعربين راعوا فى الإعراب ظاهر اللفظ ولم ينظروا فى موجب المعنى من ذلك قوله تعالى : (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء)[1] . فإنه يتبادر إلى الذهن عطف (أن نفعل) على (أن نترك) ، وذلك باطل ؛ لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا فى أموالهم ما يشاءون ، وإنما هو (عطف على « ما » فهو معمول للترك ، والمعنى أن نترك أن نفعل) . وسبب الوهم المذكور أن المعرب يرى أن والفعل مرتين بينهما حرف العطف .

والحقيقة أن المعنى يتغير كثيراً فى الحالتين — أعنى حالة عطف (أن نفعل) على (أن نترك) فى هذه الحالة يكون المعنى أنه أمرهم أن يفعلوا فى أموالهم ما يشاءون ، وليس هذا هو المقصود .

وفى حالة عطف (أن نفعل) على ما فى قوله : (أن نترك ما يعبد آباؤنا) يكون المعنى أمر ترك الذى يعبده آباؤهم ، وترك الفعل فى أموالهم كيفما يشاءون ، وهذا هو المقصود .

---

(١) سورة هود آية : ٨٧ .

الثانى : أن يراعى ما تقتضيه الصناعة ، فربما راعى المعرب وجهاً صحيحاً ولاينظر فى صحته فى الصناعة .

قال الحوفى : إن الباء من قوله تعالى : (فناظرة بم يرجع المرسلون)[1] متعلق بناظرة ، وهو باطل ؛ لأن الاستفهام له الصدر بل هو متعلق بما بعده .

الثالث : أن يكون ملماً بالعربية لئلا يخرج على ما يثبت ، كقول أبى عبيدة فى قوله تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون)[2] . قال : إن الكاف قسم حكاه مكى وسكت عليه فتعقبه ابن الشجرى عليه فى سكوته . ويبطله أن الكاف لم تجىء بمعنى واو القسم وإطلاق ما الموصولة على الله وربط الموصول بالظاهر ، وهو فاعل (أخرجك) ، وأقرب ما قيل فى هذه الآية : إنها مع مجرورها خبر محذوف أى هذه الحال من تنقيلك الغزاة على مارأيت فى كراهتهم لها كحال إخراجك للحرب فى كراهيتهم لها .

الرابع : أن يتجنب الأمور البعيدة ، والأوجه الضعيفة ، واللغات الشاذة ، ويخرج على القريب ، والقوى ، والفصيح ؛ فإن لم يظهر إلا الوجه البعيد فله العذر ، وإن ذكر الجميع لقصد الإعراب ، والتكثير فصعب شديد ، أو لبيان المحتمل ، وتدريب الطالب فحسن فى غير ألفاظ القرآن ، أما التنزيل فلايجوز أن يخرج إلا على ما يغلب على الظن إرادته ، فإن لم يغلب شىء فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف ، ومن ثم خطىء من قال فى : (وقيله) فى قوله تعالى : (وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون)[3] .

---

(١) سورة النحل آية : ٣٥ .
(٢) سورة الأنفال آية : ٥ .
(٣) سورة الزخرف آية : ٨٨ .

خطىء من قال فى (قيله) بالجر أو النصب إنه عطف على لفظ الساعة من قوله تعالى : (وعنده علم الساعة)[1] أو محلها لما بينهما من التباعد ، والصواب : أنه قسم أو مصدر (قال) مقدراً .

الخامس : أن يستوفى جميع ما يحتمله اللفظ من الأوجه الظاهرة ، فنقول فى نحو (سبح اسم ربك الأعلى)[2] يجوز كون الأعلى صفة للرب أو صفة للاسم .

السادس : أن يراعى الشروط المختلفة بحسب الأبواب ، ومن لم يتأملها اختلطت عليه الأبواب والشرائط ، ومن ثم خطىء الزمخشرى فى قوله : قال تعالى : (ملك الناس ، إله الناس)[3] إنها عطف بيان ، والصواب : أنهما نعتان لاشتراط الاشتقاق فى النعت والجمود فى عطف البيان .

السابع : أن يراعى فى كل ما يشاكله ، فربما خرج كلاما على شىء ، ويشهد استعمال آخر فى نظير ذلك الموضع بخلافه ، ومن ثم خطىء الزمخشرى فى قوله : قال تعالى : (ومخرج الميت من الحى)[4] إنه عطف على (فالق الحب والنوى)[5] ولم يجعله معطوفا على (يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى)[6] بالفعل فيهما يدل على خلاف ذلك .

الثامن : أن يراعى الرسم ومن ثم خطىء من قال فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الزخرف الآية : ٨٥ .
(٢) سورة الأعلى الآية : ١ .
(٣) سورة الناس الآية : ٢ ، ٣ .
(٤) سورة الأنعام الآية : ٩٥ .
(٥) سورة الأنعام الآية : ٩٥ .
(٦) سورة الأنعام الآية : ٩٥ .

(سلسبيلا)[1] إنها جملة أمرية ، أى سل طريقاً موصلة إليها ؛ لأنها لو كانت كذلك لكتبت مفصولة .

التاسع : أن يتأمل عند ورود المتشابهات ، ومن ثم خطىء من قال : (أحصى لما لبثوا أمدا)[2] إنه أفعل تفضيل ، والمنصوب تمييز وهو باطل فإن الأمر ليس محصيا بل محصى وشرط التمييز المنصوب بعد أفعل كونه فاعلا فى المعنى ؛ فالصواب : إنه فعل وأمدا مفعول مثل (وأحصى كل شىء عددا)[3] .

العاشر : ألا يخرج على خلاف الأصل ، أو خلاف الظاهر لغير مقتض ، ومن ثم خطىء مكى فى قوله : قال تعالى : (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى)[4] قال : إن الكاف نعت لمصدر أى إبطالا كإبطال الذى والأصح كونه حالا من الواو أى لا تبطلوا صدقاتكم مشبهين الذى ؛ فهذا لا حذف فيه .

الحادى عشر : أن يبحث عن الأصلى والزائد نحو قوله تعالى (إلا أن يعفون أو يعفوا الذى بيده عقده النكاح)[5] فإنه قد يتوهم أن الواو فى (يعفون) ضمير الجمع فيشكل إثبات النون ، وليس كذلك بل هى فيه لام الكلمة . فهى أصلية والنون ضمير النسوة ، والفعل معها مبنى ووزنه يفعلن بخلاف قوله تعالى : (وأن تعفوا أقرب للتقوى)[6] فالواو فيه ضمير الجمع وليست من أصل الكلمة .

---

(١) سورة الإنسان آية : ١٨ .
(٢) سورة الكهف آية : ١٢ .
(٣) سورة الجن آية : ٢٨ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٦٤ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢٣٧ .
(٦) سورة البقرة آية : ٢٣٧ .

الثانى عشر : أن يتجنب إطلاق لفظ الزائد فى كتاب الله تعالى ؛ فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له ، وكتاب الله منزه عن ذلك ولذا فر بعضهم إلى التعبير بدله بالتأكيد والصلة والمقحم[1] .

علم الصرف :

بهذا العلم تعرف الأبنية والصيغ . قال ابن فارس : (ومن فاته علمه فاته المعظم) ؛ لأن (وجد) ـ مثلا ـ كلمة مبهمة فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها فقلنا فى المال : (وجدا) وفى الضالة (وجدانا) وفى الغضب (موجده) وفى الحزن (وجدا) وحكى السيوطى عن الزمخشرى أنه قال : من بدع التفاسير قول من قال : إن الإمام فى قوله تعالى : (يوم ندعو كل أناس بإمامهم)[2] قال : إن إمام جمع أم وأن الناس يوم القيامة يدعون بأمهاتهم دون آبائهم . قال : وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف فإن أماً لا تجمع على إمام . وفائدة التصريف حصول المعانى المختلفة المتشعبة عن معنى واحد ، فمثلا : قاسط فى قوله تعالى : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا)[3] متصرفة من قسط بمعنى جار وظلم ، ومقسط فى قوله تعالى : (إن الله يحب المقسطين) متصرفة من أقسط بمعنى عدل . فبذلك تحول المعنى بالتصريف من الجور إلى العدل . فالعلم بالتصريف أهم من معرفة النحو فى تعرف اللغة ؛ لأن التصريف نظر فى ذات الكلمة والنحو نظر فى عوارضها وهو من العلوم التى يحتاج إليها المفسر[4] .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٩ .

(٢) سورة الإسراء آية : ٧١ .

(٣) سورة الجن آية : ١٥ .

(٤) بتصرف من البرهان فى علوم القرآن الزركشى جـ ١ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

علم الاشتقاق :

وهذا من العلوم التى يحتاج إليها المفسر ؛ لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافها كالمسيح - مثلا - هل هو من السياحة وهى التأمل والتدبر والتفكر فى إبداع الله والسياحة بالقلب فى ملكوته ؟ أو كلمة المسيح مأخوذة من المسح أى الممسوح من الذنوب ؟ أو لأن من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المبارك ؟ فالمعنى لكلمة المسيح اختلف باختلاف الاشتقاق .

ومثلا : كلمة « الحر » ضد العبودية ، وعبد حر أى معتق . قال تعالى : (نذرت لك ما فى بطنى محرراً)[1] ، ومحررين أبى هريرة يحدث عنه ، والحرورية الذين خرجوا على على بن أبى طالب رضى الله عنه نسبوا إلى حروراء موضع اجتمعوا فيه ، والحر : طائر معروف ، والحر ضرب من الحيات والحرير معروف والحرة أرض غليظة تركبها حجارة سود والجمع حرار[2] .

علوم البلاغة الثلاثة :

أولا : علم المعانى :

يعرف به خواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى .

وعلم المعانى منحصر فى ثمانية أبواب :

أولها : أحوال الإسناد الخبرى .

ثانيها : أحوال المسند إليه .

---

(١) سورة آل عمران آية : ٣٥ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١٣٥ .

ثالثها : أحوال المسند .

رابعها : أحوال متعلقات الفعل .

خامسها : القصر .

سادسها : الإنشاء .

سابعها : الفصل ، والوصل .

ثامنها : الإيجاز والإطناب والمساواة .

ووجه الحصر : أن الكلام إما خبر أو إنشاء ؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه أو لا يكون لها خارج . الأول : الخبر ، والثانى : الإنشاء ، ثم الخبر لابد له من إسناد ومسند إليه ومسند ، وأحوال هذه الثلاثة هى الأبواب الثلاثة الأولى . ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا ، أو متصلا به أو فى معناه كاسم الفاعل ونحوه ، وهذا هو الباب الرابع ، ثم الإسناد والتعلق كل واحد منهما يكون إما بقصر أو بغير قصر . وهذا هو الباب الخامس ، والإنشاء وهو الباب السادس ، ثم الجملة إذا قرنت بأخرى فتكون الثانية إما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة . وهذا هو الباب السابع . ولفظ الكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائدة عليه . وهذا هو الباب الثامن[1] .

فمثلا : فى قصر الموصوف على الصفة قال تعالى : (وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون)[2] .

أى لستم فى دعواكم للرسالة عندنا بين الصدق والكذب كما يكون ظاهر

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة للقزوينى .

(٢) سورة يس الآية : ١٥ .

حال المدعى إذا ادعى بل أنتم عندنا كاذبون فيها[1] .

فلولا المعرفة بعلم المعانى ما عرف ذلك المعنى .

ثانياً : علم البيان :

يعرف به خواص تركيب الكلام من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها . وعلم البيان ينحصر فى التشبيه ، والمجاز ، والكناية .

فمثلا : التشبيه هو الدلالة على مشاركة الآخر فى المعنى . قال تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)[2] فالقرآن الكريم شبه اليهود الذين حملوا التوراة بالحمار الذى يحمل أسفارا . ووجه الشبه منتزع من أمور مجموعة قرن بعضها إلى بعض ، وذلك أنه روعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل ، وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً ، وهى الأسفار التى هى أوعية العلوم ، وأن الحمار جاهل ما فيها وكذا فى جانب المشبه .

ومن المجاز الاستعارة فى قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض)[3] فإن المستعار منه حركة الماء على الوجه المخصوص والمستعار له حركة الإنس والجن أو يأجوج ومأجوج وهما حيان والجامع لهما ما يشاهد من شدة الحركة والاضطراب .

والكناية : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ مثل قول الله تعالى : (ولما سقط فى أيديهم) كناية عن الندم والحسرة على عبادة العجل ؛ لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها .

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ ٢ ص ١٣ .

(٢) بعض الآية ٥ من سورة الجمعة .

(٣) بعض الآية ٩٩ من سورة الكهف .

ثالثاً : علم البديع :

وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام . مثل : الجناس الناقص فى قول الله تعالى : (وهم ينهون عنه وينأون عنه)[1] .

وخلاصة الكلام : هذه العلوم الثلاثة - أعنى علم المعانى ، والبيان ، والبديع - من أعظم أركان المفسر ؛ لأنه لابد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز ، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم[2] .

علم القراءات :

من أسلحة المفسر ، إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض . قال تعالى : (فامسحوا برءوسكم وأرجلكم)[3] قرىء بنصب « أرجلكم » عطفاً على « أيديكم » وهذا يفيد وجوب غسل الرجلين فى الوضوء . وقرىء بالجر عطفاً على « برءوسكم » وهذا يفيد وجوب مسح الرجلين فى الوضوء . وبذلك يتضح أن الاختلاف فى القراءة كان سبباً فى تغيير الحكم ويترجح أحد القراءتين بترجح الحكم .

علم أصول الدين :

وهو علم الكلام ، وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب فى حقه تعالى ، وما يجوز ، وما يستحيل . وأن ينظر فى الآيات المتعلقة بالنبوات والمعاد ، وما إلى ذلك ، نظرة صائبة . ولولا ذلك لوقع المفسر فى ورطات . فالله سبحانه وتعالى يجب أن يوصف بما يوصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تشبيه . فلا يقال : سمع كسمعنا ، ولا بصر كبصرنا ونحوه . وأيضاً

---

(١) بعض الآية ٢٦ من سورة الأنعام .

(٢) انظر الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى .

(٣) سورة المائدة آية ٦ .

يجب أن يوصف بما وصف به نفسه من غير تعطيل ، فلا ينفى عنه ما وصف به نفسه ، أو وصف به أعرف الناس به وسوله ﷺ فإن ذلك تعطيل ، يقول الله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1] . فقوله : (ليس كمثله شيء) رد على المشبهة وقوله (وهو السميع البصير) رد على المعطلة[2] .

علم أصول الفقه :

وبه يستطيع المفسر كيف يستنبط الأحكام من الآيات ، ويستدل عليها ويعرف الإجمال والتبيين ، والعموم والخصوص ، والإطلاق والتقييد ، ودلالة الأمر والنهى ، والإباحة ، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم .

فمثلا : تستفاد الإباحة من لفظ الإحلال ، ورفع الجناح ، والإذن ، والعفو ، وإن شئت فافعل ، وإن شئت فلا تفعل ، ومن الامتنان بما فى الأعيان من المنافع ، وما يتعلق بها من الأفعال نحو قوله تعالى : (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين)[3] .

علم أسباب النزول :

إذ أن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من الآية . وبدون معرفة سبب النزول يقع المفسر فى خطأ كبير . فحكى عن عثمان بن مظعون ، وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولون : الخمر مباحة ، ويحتجان . بقول الله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا)[4] .

---

(١) سورة الشورى الآية ١١ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية جـ ٤ ص ٣٨١ .
(٣) سورة النحل آية ٨ .
(٤) سورة المائدة آية ٢ .

لأنه كان يخفى عليهما سبب النزول . ولكن سبب النزول يمنع ذلك الفهم - أعنى إباحة الخمر - قال الحسن وغيره فى سبب نزول هذه الآية[1] لما نزل تحريم الخمر على المسلمين قالوا : كيف بإخواننا الذين ماتوا وهى فى بطونهم ، وقد أخبر الله أنها رجس فأنزل الله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) .

علم الناسخ والمنسوخ :

قال الإمام ابن حزم فى كتابه : الإحكام فى أصول الأحكام: قال أبو محمد : لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول فى شىء من القرآن والسنة هذا منسوخ إلا بيقين لأن الله عز وجل قال (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله)[2] . وقال تعالى : (واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم)[3] فكل ما أنزل الله تعالى فى القرآن وعلى لسان نبيه فرض اتباعه ؛ فمن قال فى شىء من ذلك إنه منسوخ ، فقد أوجب ألا يطاع ذلك الأمر[4] .

ويجب على المفسر أن يعرف الفرق بين النسخ والنسء . فالنسخ : الإزالة والنسأ . التأجيل ، ولا يعنى هذا نفى الحكم . فمثلا : ما أمر الله به لسبب ثم يزول السبب ؛ كالأمر حين الضعف ، والقلة بالصبر والمغفرة للذين يرجون لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد ونحوها . قال تعالى : (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون)[5] ثم نسخ هذا الحكم إيجاب ذلك بآية

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٨١ .
(٢) سورة النساء الآية : ٦٤ .
(٣) سورة البقرة الآية : ٣ .
(٤) مختصر من الأحكام لابن حزم جـ ٤ ص ٨٣ ، ٨٤ .
(٥) سورة الجاثية الآية : ١٤ .

السيف . وهذا ليس بنسخ فى الحقيقة ؛ وإنما هو نسىء كما قال الله تعالى : (أو ننسها) فالمنسأ : هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون وفى حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى . وبهذا التحقيق تبين ضعف ماهج به كثير من المفسرين فى الآيات الآمرة بالتخفيف إنها منسوخة بآية السيف ، وليست كذلك بل هى من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله فى وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدا[1] .

علم التاريخ :

معرفة التاريخ يعين على توضيح ماأجمله القرآن وأشار إليه فمعرفة القصة تفصيلا يعين على توضيح ما أجمل منها فى القرآن .

علم الاجتماع والمجتمع :

لقد أنزل الله هذا الكتاب ، وجعله آخر الكتب ، وبين فيه ما لم يبين فى غيره ، بين فيه كثيراً من أحوال البشر ، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم ، وسيرها الموافقة لسنته فيها . فلابد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ، ومناشىء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفله ، ولابد للمفسر أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم ؛ لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال ، وأن النبى ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم ، وكيف يفهم المفسر ما تبحثه الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٤٢ .

عارف بأحوالهم ، وما كانوا عليه ؟ وإن من نشأ فى الإسلام ولم يعرف حال الناس قبلة يجهل تأثير الإسلام فى هداية هؤلاء الناس وكيف أخرجهم من الظلمات إلى النور ؟

علم سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه :

لأنهم هم الذين عايشوا نزول القرآن ، فمعرفة سيرتهم وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى شئون دنيوبها وأخرويها يستطيع المفسر أن يفهم روح القرآن الكريم .

علم الحديث :

نحن نعرف أن السنة هى المرتبة الثانية فى التشريع ، فلابد للمفسر أن يكون على قدر كبير من المعرفة بعلم الحديث حتى يستطيع أن يعرف الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم ليستعين بها على توضيح ما يشكل عليه . ولقد بينت ما أجمل فى القرآن من عبادات وأحكام . فعلى سبيل المثال : لقد فرض الله تعالى الصلاة على المؤمنين من غير أن يبين أوقاتها وأركانها وعدد ركعاتها ، فبين الرسول الكريم ﷺ هذا بصلاته وتعليمه المسلمين كيفية الصلاة وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى »(١) :

المفسر والعلوم الحديثة :

من إعجاز القرآن إشارته إلى نشأة علوم حديثة لم يعرفها السابقون ؛ وإنما لفت أنظارهم إليها كما وجه أبصارهم إلى دراسة الكون وتأمل ظواهره والإحاطة بآيات الله فيه . من بين هذه العلوم : علم الفلك ، النجوم ، الطب ، علم الحيوان ، علوم النبات ، علم النفس .

---

(١) أخرجه البخارى .

وقد حملت آيات القرآن بذور هذا التقدم العلمي، وارشدت إليه وفككت مغاليقه، وتركت للعقل البشري بعد ذلك استكمال رسالته حتى يتحقق من صواب نظريته أو خطئها. قال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)[1].

ولسنا هنا بصدد بيان تلك العلوم، ولكن فقط نحب أن نقول: إن المفسر ينبغي أن يقف على هذه العلوم ولا يهملها ولا يكون بمعزل منها؛ لأن الوقوف عليها سوف يعينها على إظهار الإعجاز العلمي. وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع، وبسطوا كل ذلك بسطاً في موضعه. من ذلك: أن الصعود إلى أعلا يلزمه حتما ضيق الصدر أي الاختناق بسبب نقص الأكسجين، وهذا يفسر لنا قوله تعالى: (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء)[2].

علم الموهبة:

وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم وإليه الإشارة بقوله تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله)[3].

قال السيوطي: بعد أن عد علم الموهبة من العلوم التي لابد منها للمفسر قال: ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الإنسان وليس الأمر كما ظننت من الإشكال. والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد.

---

(١) سورة الشورى آية: ٥٣.

(٢) سورة الأنعام آية: ١٢٥.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٨٢.

نتائج البحث

١ — ترتبط مكانة التفسير بمكانة موضوعه ، وموضوعه هو أشرف الموضوعات لأنه كتاب الله عز وجل .

٢ — الذى يتعرض لتفسير القرآن ينبغى أن يتسلح بسلاح المعرفة ـ أعنى دراسة العلوم التى يحتاج إليها المفسر .

٣ — كل من يتعرض لتفسير كتاب الله دون أن يتسلح بسلاح المعرفة يقع فى خطأ كبير ويضل الناس عن الطريق المستقيم ويتعرض لغضب الله سبحانه .

خاتمة

هذه هى العلوم التى يحتاج إليها المفسر فى تفسيره للقرآن ، ولعلى أكون قد وفقت فى عرضها باختصار ووضعت أمام القارىء الخطوط الرئيسية التى ينبغى أن يسير عليها المفسر .

ولقد بذلت قصارى جهدى فى ذلك ؛ فإن وفقت فمن الله وإن أخفقت فمنى ومن الشيطان .

نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم بحمد الله صبيحة غرة رجب سنة ١٤٠٤ هـ . الموافق ٣ من أبريل سنة ١٩٨٤ م .

د . المحمدى عبد الرحمن

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

مراجع البحث

ذكرتها مرتبة حسب وجودها فى البحث :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .

٣ ـ تفسير ابن جرير الطبرى .

٤ ـ قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم للفقيه الدمغانى .

٥ ـ البرهان فى علوم القرآن للزركشى .

٦ ـ الاشتقاق لابن دريد .

٧ ـ الإيضاح فى علوم البلاغة للقزوينى .

٨ ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح .

٩ ـ شرح العقيدة الطاوية .

١٠ ـ تفسير ابن كثير .

١١ ـ صحيح البخارى .